الفصل السادس
تنجيم القرآن الكريم

أـ مفهوم التنجيم :

من المعروف أن نزول القرآن منجماً قضية لا مراء فيها ، ثبتت في النص القرآني ذاته وفي السنة ، فالخبر متواتر ، ومعنى التنجيم كما أسلفنا يشتمل على الزمان والمكان ، والبحث يروق لكثير من المغرضين الذين يتصورون احتكام النص إلى الواقع .

لقد نزل القرآن بحسب الوقائع واقتضاء الحال ، أي لم يتنزل بسبب في كل مرة وإن واءم الواقع بمضمون المنزّل .

والحجم المنزّل مختلف ، فكثيراً ما تنزل خمس آيات أو تنزل عشر آيات كما في أوائل سورة المؤمنون ، ونزلت عشر آيات طوال من سورة النور لدى حادثة الإفك مبرئةً عائشة رضي الله عنها .

روى زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه نزلت الآية : « ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٩٥] فشق على ابن أم مكتوم وقال : كيف وأنا أعمى لا أبصر ؟ فنزل تمام الآية : ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ مفرداً[(١)] » .

كذلك نزلت سورة بتمامها مثل المرسلات والرحمن والإخلاص والكوثر ، فالنزول غير محدد الحجم في تنجيمه ، لكن ورد عن عمر

---

(١) البخاري في التفسير رقم (٤٣٢٦) وأسباب النزول للواحدي ، ص/١٤٨ .

رضي الله عنه : « تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً » .

وقال أبو نضرة : « كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشي ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات » .

يقول الدكتور أبو شهبة جامعاً بين هذا التحديد والاختلاف المعروف : « فإن المراد إن صح إلقاؤه إلى النبي ﷺ هذا القدر ، حتى يحفظه ، ثم يُلقى إليه الباقي ، لا إنزاله بهذا القدر خاصة »[1] .

ونقول : سند هذين الحديثين فيه نظر ، كما أن تأويل الدكتور أبو شهبة فيه نظر فبعض الآيات طويلة تقدر الواحدة منها بحجم عشرين آية من القصار ، هذا بالإضافة إلى الوقف والنهي عنه في الترتيل ، ويبدو لنا أن الرقم خمسة تقريبي لأجل التمهل فقط .

ومما نزل بعض آية أيضاً وهو نادر ، قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٢٨] نزلت بعد أول الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ .

ورد في أسباب النزول للسيوطي أنه لما نزل أول الآية شقّ على المسلمين فقالوا : من يأتينا بالطعام والمتاع ، إذ كان المشركون يتّجرون به قبل العام التاسع للهجرة زمن نزول الآية ، فنزل القسم الآخر من الآية .

ونشير إلى فائدة هي أن الله تعالى وعد الصحابة بالإغناء ممهداً بالحرف (سوف) أي يحتاج الأمر إلى استقبال بعيد وفترة طويلة الأمد

---

(١) المدخل ، د . أبو شهبة ، ص/١١٨ .

نوعاً ما ، ولم يقل سيغنيكم ، وذلك لأن السين للاستقبال القريب ، ولعل القرب والبعد مستوحيان من عدد الحروف : سوف ، س ، وقد كان تحقيق هذا الوعد بالفتوحات والجزية وهو زمن بعيد بالنسبة لأعمار الصحابة .

أما تجلّي البراهين فهو قريب بعد مرور سنوات كثيرة على بداية الكون والذي بقي أقل بكثير مما سلف ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وفائدة أخرى هي أن النجس معنوي لخبث بواطن المشركين ، وهو أيضاً نجس عيني لأن المشركين ما كانوا يتطهرون كالمسلمين ، فالمسلم أنظف إنسان في الأرض ، ولكن لا نقيس على هذا في عدم إدخال الأجانب المشركين إلى مساجدنا ، وذلك للعموم عندنا وخصوص هذه الآية ، ولأنه ينبغي أن نعرفهم على الإسلام وحضارته .

وقد استمر نزول القرآن مفرّقاً ثلاثاً وعشرين سنة ، منذ بدء الوحي في الأربعين من عمره الشريف عليه الصلاة والسلام إلى الثالثة والستين كما ثبت في الأحاديث الصحيحة .

وليس من المفيد في البحث العلمي ذكر أرقام صغيرة باليوم والشهر ، لتنقيص هذه الفترة ، فالفترة عموماً ثلاث وعشرون سنة ، وبعضهم حذف فترة انقطاع الوحي فقلّ عن هذا ، ولا عبرة لما قالوه .

ومن هذا القبيل ما ذكره الأستاذ الخضري رحمه الله ناقلاً عن الطبري والطبراني (٣٦٠هـ) والقسطلاني (٩٢٣هـ) وغيرهم وانتهى إلى أن الفترة المكية اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من الجمعة السابع عشر من رمضان إلى أول ربيع الأول ، أما الفترة المدنية فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ إلى تاسع ذي

الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ، فالمجموع اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً .

ب ـ حكمة التنجيم :

اقتضت الحكمة الإلهية العليا تنجيم القرآن في أمة يراد تحويلها إلى الإيمان والحق بعد الكفر والباطل ، ومن الهمجية إلى الفكر ، وكان من مقتضيات إعمال الفكر في الإسلام أن نزل القرآن شيئاً فشيئاً ، لكونه بناءً في النفوس ، وهكذا يتعلم البشر عمارة الكون .

وكان بعد البناء النفسي في تنجيم القرآن المكي بناء تعبدي وتشريعي في تنجيم القرآن المدني ، وهكذا يتعلم الإنسان الاستفادة من أحد عناصر التحضّر وهو الزمن ، إلى جانب تنوع المكان الذي هو عنصر آخر في التحضّر . هذا يذكر بجذر (النجم) الذي يفيد المكان والزمان كما أسلفنا ، من ظهور النبات المكاني وظهور النجم الزماني .

وفي نزول القرآن منجماً يتعلم البشر تطلب الجديد ، هذا مع أن النص معلوم عند الله ، وهكذا يتفاعل المسلم مع الواقع وفق دائرته المحدودة .

تتجلى الحكمة في التنجيم مشتملة على صاحب الرسالة النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام ومشتملة على المسلمين ، ومشتملة على الكفرة الذين سألوا من دون غيرهم عن جدوى التنجيم .

هذا ما نفهمه من الآية : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٣] ، والآية : ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ، والآية على لسان الكفرة : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان : ٣٢] .

صحيح أن السؤال عن جدوى التنجيم برز من الكفرة ، لكن لا بد من

إظهار تجليات الحكمة كما ظهرت في الواقع الإسلامي أفراداً ومجتمعات ، وهو سؤال قد تولى الله تبارك وتعالى الإجابة عنه ، وهذا يعني أنهم سمعوا من أهل الديانات الأخرى بنزول الألواح العشرة على موسى عليه السلام ، ونزول الزبور على داود عليه السلام جملة واحدة ، وكان سؤال لجاجة .

والبون شاسع بين كون الإسلام كلمة الساعة وكونه كلمات أعوام ثلاثة وعشرين . إذ خلق الله أحداثاً متلاحقة اقتضت كلمات متلاحقة[1] .

ونذكر الآن من حكم التنجيم :

١ـ تثبيت الداعية :

ويقصد ههنا تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام ، كما في الآية السابقة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ـ ٣٣] .

هذا ما دل عليه أبو شامة المقدسي ، فقال : « أي لتقوي به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة أقوى للقلب ، وأشدّ عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به بما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل »[2] .

---

(١) راجع تاريخ القرآن ، د . إبراهيم الأبياري ، ص/ ٩٨ .
(٢) البرهان : ١/ ٢٣١ ، الإتقان : ١/ ٧١ .

وهذا كلام جميل استند إليه كثير من المعاصرين ، فأسهبوا وفرّعوا واستنبطوا ، لكنه بخلاف كلام ابن فورك محمد بن الحسن (٦٠٤هـ) الذي كان يرى أن تثبيت الفؤاد يراد منه جمع القرآن حفظاً في قلبه ، فإنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فيسَّر عليه حفظه بخلاف غيره من الأنبياء ، إذ كانوا قراء كاتبين مما أمكنهم حفظ الجميع إذا نزل جملة ، فالتثبيت عقلي لا عاطفي في نظر ابن فورك ، وهو على أية حال بعيد التأويل ، إذ لا مانع من جعله يحفظ الكثير على أميته فالله قادر على كل شيء .

لذلك نرى أن التثبيت العاطفي أوجه في التأويل ، لأنه أبدى حرصاً شديداً لحفظ القرآن فطمأنه عز وجل : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧ـ ١٩] .

فقد كان القرآن الكريم ينزل فيقوّي قلبه ويحمّسه ويسليه تجاه أعداء ألدّاء وتجاه مصاعب الدعوة : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] .

لقد كان الكفرة كما في كل عصر يواصلون الحملات الفكرية والجسمانية ، فجاءت الآيات لتخفف من عذابه عليه الصلاة والسلام ، ولهذا كثرت القصص في القرآن المكي : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود : ١٢٠] .

وانتقل هذا المدد الرباني إلى الأمة الإسلامية على مر العصور ، فثبتت أمام الأعاصير ، وسجلت ما هو معجز ، وحافظت على حضارتها لما امتثلت لأوامره وزواجره عز وجل ، كما حصل في مجابهة الصليبيين والتتار ، لأن الفكر الصحيح ينتصر على القوة العسكرية .

٢ـ التدرج :

تدرج القرآن الكريم في تثبيت جانب العقيدة الصحيحة ونزع العادات الضارة والسلوكيات المنكرة ، فقد كانوا عبدة للأصنام ، سفاكين للدماء ، معاقرين للخمر ، مغتصبين محاربين لأتفه الأسباب مما يطول سنوات ، فضلاً عن الظلم داخل القبيلة بين السادة والعبيد وبين المترفين والمعدمين .

كل هذا يحتاج إلى فترة طويلة وإلى رسالة بعد رسالة ، وبعد رسوخ العقيدة الصحيحة في العهد المكي اقتضت الحكمة الإلهية نشر الأحكام العملية في العبادات والمعاملات .

وفي هذا تقول عائشة رضي الله عنها : « إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو أنزل أول شيء لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً »[1] .

إن هذا التدرج منصوص عليه في القرآن ، قال عز وجل : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ، فالعقائد الراسخة والأخلاقيات القديمة والطباع المتأصلة لا يمكن القضاء عليها مرة واحدة ، وهذا واضح في علم التربية اليوم .

ولهذا سلك القرآن مسلك التربية الحكيمة التي تحتاج إلى زمن ، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة مع التكرار ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧٠٧) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٧٩٨٧) .

واقع ، فالنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً في سرعة اليوم والليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد ، وإنما تتدرج في مراقيه رويداً رويداً حتى تستكمل الولادة الجديدة .

ولكن لا بد من التنبيه على الفرق بين تأخير البيان لوقت الحاجة وبين التدريج ، فلا يخلط الدارس بين تحريم الزنى وتحريم الخمر بفهم سطحي للحديث السابق .

لقد وقع تحريم الزنى في مكة ، ولا نعلم في أي نص إثبات منفعة للزنى إلى جانب إثمه الكبير كما نعلم في الخمر والميسر ، ولم يقر الإسلام بأي لون من الزنى والسفاح ، بل حرّمه بلهجة قاطعة : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] من غير تدرج .

وكذلك القطع بتحريم السرقة والقتل واغتصاب الأموال ، إذن فقد أخر القرآن الكريم بيان بعض الأحكام ، وحين أراد بيانها أمضى فيها أمره مرة واحدة بأسلوب قاطع ولم نجد فيها مجالاً للتدريج[1] .

فإن المحرمات التي سكت عن بيان حكمها لم تكن في حيز الإباحة ، فالخمر محرمة منذ أول الكلام عليها ، مسكوت عن حكمها ، فكانت في مرحلة العفو كما يقول الأصوليون ، حتى إذا كان المنع الصريح في المدينة كان معه العقاب ، وكذلك الزنى إذ سكت عن حدّه ،لأن المسلمين لم يكن لهم دولة تحمي هذه الحدود .

فالقتل والزنى والسرقة جرائم في حق الحياة الإنسانية أي تشتمل على مظالم وحقوق للعباد فلا يجوز السكوت عنها ولا التنجيم فيها . بل بقي

---

(١) راجع مباحث في علوم القرآن ، د . صبحي الصالح ص/٥٧ . وراجع المعجزة الكبرى ، د . محمد أبو زهرة ، ص/٢٥ .

التدرج كما أسلفنا في العادات الشعبية والأمراض النفسية كالخمر والميسر .

ويشهد لهذا ما يلزم في أسلوب الدعوة إذ يقدَّم ترسيخ العقائد السليمة على بيان الأحكام والتفصيلات ، وقد أخفقت الولايات المتحدة إخفاقاً ذريعاً لدى منع الخمر ، إذ أقبل الناس على الشرب أكثر هناك مما دعا إلى استفحال المشكلة في الثلاثينيات من القرن العشرين .

وما من ريب أن الإسلام فرّق بين الأعماق والسطحيات في أنفس الأفراد والمجتمعات ، فكل قضية عميقة الجذور في نفس المجتمع اتخذت شكل تقليد اجتماعي أو عرف أولي ، فللإسلام فيها موقف المتمهل المتريث الذي يؤمن أن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى .

٣ـ سيرورة الدعوة :

وتعني مجاراة الحوادث وبيان الأحكام فيها ، والإجابة عن أسئلة موجهة من المسلمين ومن الكفرة وتصليح الأغلاط .

فقد نزلت آيات النور إثر حادثة الإفك مبينة براءة السيدة عائشة رضي الله عنها مُدينةً من رماها بالفاحشة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : ١١] فالخير في تقرير الشهود وتحديد إثم المعتدي وبيان حد الزنى عموماً .

وإبطال حكم الظهار بأن يطلق المرء زوجته بقوله : (أنت عليَّ كظهر أمي) كما جرى مع خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها ، إذ جاءت تشتكي وتقول : « إن أوساً أخذني وأنا شابة مرغوب فيّ حتى كبر سني ونثرت له بطني ظاهَرَ مني ، وإن لي أولاداً إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا . فقال عليه الصلاة والسلام : « ماأراك إلا قد حرمت عليه ولم

أومر في شأنك بشيء » فجعلت تجادل طالبة مخرجاً .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾[1] [المجادلة : ١ـ ٢] .

وهكذا خلق عز وجل واقعاً لينزل آيات مناسبة فينتزع هذه العادة الجاهلية الآثمة ، وجعل فدية لمن يخطئ هذا الخطأ بتحرير رقبة أو صيام شهرين ولا نظن أن أحداً نفّذ فيه هذا الحكم لأنهم ارتدعوا ، فكان الحكم بعد هذا مبطلاً لفكرة في حيّز التفكير .

ومنه أيضاً التنبيه على أغلاط في مسيرة الدعوة والتحذير من الوقوع في مثلها ، هذا ما حدث في غزوة أحد بعد أن ترك الرماة أماكنهم ، فكانت النتيجة خسارة المسلمين ، فجاءت الآيات محذرة من المخالفة العسكرية ومن الفرار عند اللقاء : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] [آل عمران : ١٥٢] إلى تمام ست آيات فيها التوجيه الإلهي .

ومن مظاهر تطور الدعوة سؤال الصحابة عما يغمض حكمه ، كالآية : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] أي الزائد عن حاجاتهم ، والآية : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ص/ ٣٣٥ـ ٣٣٦ .

(٢) راجع أسباب النزول ص/ ١٠٦ـ ١٠٧ .

وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

فصرفهم البيان الإلهي من ماهية المال المتصدق به وحجمه إلى مصارف هذه الصدقة وهي أولى بالعناية والفهم : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

ومن الإجابة الصارفة إلى قضية مهمة لم يُسأل عنها كما يسمى « أسلوب الحكيم » في البلاغة ، أن تساءل الصحابة الكرام عن الهلال والبدر من حيث الصغر والكبر وهو سؤال فلكي والأهم منه التخلص من سلوك غير لائق ، فكان الجواب : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وثمة أسئلة يتبجّح بها الكفرة على سبيل الإغاظة والعناد ، ولعلها مقترحات تعرض من اليهود على كفار قريش ، وكانت أسئلة كثيرة إجاباتها قرآن متفرق في أزمنة مختلفة ، وما دامت من الكفرة فإنها تخلو من أحكام فقهية وتتعلق بالأخبار والغيب .

مثل الآية : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء : ٨٥]، والآية : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف : ٨٣ـ ٨٤] إلى نهاية سبع عشرة آية .

وهكذا القرآن يقف بالمرصاد للدعاوى والأباطيل والاستفزازات التي يثيرها الكفرة متفرقين ومتعاونين .

ونذكر أن أبيّ بن خلف قال : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ وكلامه ينم عن نظرة محدودة في الكون غير علمية ، وكان قد أمسك بقطعة عظم بالية ، وتلك نظرة الدهريين الذين لا يفهمون حقيقة المادة

ذاتها في كل عصر من « هيوم » وأربابه ومريديه الجهلة الذين وجدوا في المادية العمياء سبيلاً إلى الإلحاد .

وكان ردّه عليه الصلاة والسلام بكل ثقة وقبل نزول الجواب القرآني : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار »[1] فبيّن مآله ومصيره قبل موته ، وهذا من الإعجاز الغيبي للنبوة .

ثم نزلت الآيات : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : ٧٧ـ ٨٠] .

ونلحظ هنا عدم الاكتفاء بعالم الغيب ، فالخلق معجزة وهو في عالم الشهود ، ولكن التكرار أبعد عن أذهاننا فكرة الإعجاز ، والعلم الحديث اليوم يتجاوز ما نحسّ ، يتجاوز المدرك ليقول بوجود عالم وراء المدرك قد تحتوي فيه الذرة معالم واسعة من عالمنا المرئي ، فالخلق أدعى إلى التعجب من إعادة الخلق ، وتصوّر الأخضر ناراً شيء عجيب ، والولادة كذلك معجزة ولكنه التكرار الذي يقلل من فكرة الإعجاز .

٤ـ تثبيت المسلمين :

وذلك أنهم يتعودون على الصبر وتحمل الشدائد بما يرد مرة بعد مرة من ذكر الأنبياء ونضالهم في سبيل الدعوة إلى الله ، فإن هؤلاء السابقين البررة استغرق الكلام عليهم ثلث القرآن في العهدين : المكي والمدني .

فيذكّر القرآن بأن النصر قرين الثبات والصبر والمصابرة والإخلاص عند أهل التقوى ، وأن العاقبة الوخيمة قرينة الكفرة الخاسرين ومن يتبعهم

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ، ص/ ٣٠٣ـ ٣٠٤ .

أو يقلدهم في منهجهم الفكري وسلوكهم الشخصي الخلقي .

قال عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وذُكر أنه لما دخل المسلمون المدينة المنورة اشتد الضرر عليهم بأن خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ ، وأسرّ قوم من الأغنياء النفاق ، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ « الآية » ، وذكر أنها نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الأذى[1] .

ومثله الآية : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] التي نزلت بين آيات بعد غزوة أحد ، وكان القرآن قد جعل الابتلاء قانوناً عاماً وسنة من سنن الكون ، إذ استهل سورة العنكبوت بهذه الآيات : ﴿ الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ـ٣] .

قال الشعبي (١٠٣هـ) : « نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم النبي ﷺ : « إنه لا يُقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا » فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فاتبعهم المشركون فآذوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية .

ثم كانوا من المهاجرين وقاتلوا المشركين وهم في الطريق فأنزل الله

---

(١) أسباب النزول للواحدي ، ص/ ٥٤ .

فيهم آيات أخرى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل : ١١٠] .

٥ـ التحذير من المنافقين :

إن شأن النفاق خطير في المجتمع ، لأنه يمثل قوة خبيثة لا تعرف ، وخطراً لا تدرك حدوده ومظاهره ، فمن الحكمة أن يفتح المسلم المصحف الشريف ليجد ثلاث فئات في مستهل سورة البقرة : فئة المؤمنين وفئة الكافرين وفئة المنافقين ، وقد كان الكلام على الأخيرين أطول من سابقه ، ومعظمهم من اليهود الذين ما زالت البشرية تعاني من ويلاتهم وخبثهم .

فهؤلاء الذين تظاهروا بالإسلام نزل القرآن ، ففضح أسرارهم وأطلع المسلمين على حبائلهم الشيطانية ومكائدهم ودسائسهم مما أحبط مخططاتهم الدائبة في كل عصر ، لأن هؤلاء تبعاً لتخفيهم وتسترهم بالتوحيد الإسلامي أخطر من العدو الخارجي على تلك الدولة الفتية في المدينة المنورة وعلى كل دولة إسلامية .

نقرأ في بداية المصحف : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ٨ـ ١٥] .

وجاء في وصف قيامهم للصلاة ونشرهم الأراجيف والإحن بين الأطراف : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢ـ١٤٣] .

بل إن الله عز وجل أنزل سورة بتمامها في شأنهم تسمى سورة المنافقين حتى يخلد التحذير من هذه الفئة الباغية في كل عصر وبقعة ، جاء فيها : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

وفُصّل الكثير من أحوالهم في سورة التوبة وهي من غير بسملة لخلوها من الرحمة تجاه المنافقين ، وتسمى الفاضحة لفضحها خبايا المنافقين ، فكانوا مثلاً واضحاً لسوء الطباع ودناءة الأخلاق وعمق النذالة ، والدس والوقيعة بين الناس ، وهذا ديدنهم في الشعوب ما توالت العصور وتعددت الدور .

فإذا تخلّق الناس بأخلاق القرآن فإنهم يكشفون مكر المنافقين ، وذلك لأنهم كانوا سابقاً يخشون نزول ما يكشف نواياهم ، قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] ومن جبنهم أنهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المنافقون : ٤] .

٦ـ تجلي الإعجاز :

وذلك أن القرآن نزل مفرقاً حتى لا يقول الكفرة : جاءنا مرة واحدة أو دفعة واحدة ، فلا نستطيع معارضته ، ولو جاءنا مفرّقاً لعارضناه ، أي أرخى لهم الحبل ، ليدفعهم بالحجة الداحضة ويبين عجزهم ، ويقطع عليهم سبيل العذر .

كذلك فالتنجيم يفيد « تقريع الكفار بالحجة بعد الحجة ، وتجديد تذكيرهم بانحرافهم وسوء عقيدتهم ، ولو نزل القرآن دفعة واحدة ، لواجه الكفار هذه التقريعات ، وتألّموا لها أول مرة ثم ألفوها ونسيها الناس »[1] .

فإن كانوا يرتابون في كون المنزَل من عند الله فليأتوا بقطعة واحدة مشابهة له ، إذن فثمة تحدٍّ مرة بعد مرة وعجز مرة بعد مرة ، مما يؤكد تمام العجز في نهاية التنجيم .

٧ـ قطعية النص :

إن التنجيم يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله ، ولا يمكن أن نطبق عليه منهج كتابة البشر ، لأنه من أوله إلى آخره محكم السرد متين الأسلوب على نسق واحد ، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته كما ذكرنا حول كتابي البقاعي والسيوطي ، فهو معجز من ألفه إلى يائه[2] .

وهذا لا يتسق لكتاب بشري كتب في أوقات متعددة ، وأماكن متعددة ، إذ نجد أن الأسلوب يتغير فضلاً عن الاتجاه الفكري . وأن التفاوت حقيقة قائمة في الإبداع البشري الطويل الأمد تبعاً للجانب النفسي والتقلبات الفكرية .

وكان حفظ الصحابة للقرآن في الصدور والسطور أبقى له على الدهر مما أبعده عن تهمة التحريف والتشويه ، فإن مصداقية قطعة صغيرة أقبل عند العقل من مصداقية قطعة كبيرة ، وهكذا لم يدَّع أحد أمام هذا الواقع العملي أي تشويه في النص القرآني .

---

(١) لمحات في علوم القرآن ، د . محمد الصباغ ، ص/ ٥٩ .

(٢) مناهل العرفان : ١/ ٥٤ ، والتبيان ، محمد علي الصابوني ، ص/ ٤٧ـ٤٨ ، وعلوم القرآن ، أحمد عادل ، ص/ ٢٧ .

ج ـ قضايا للمناقشة :

تنقل الدكتورة فاطمة المرنيسي شيئاً مغرضاً حول نزول القرآن ، وتصل إلى أنه ﷺ : « كان يتلقى رسالة الله شفاهاً وينقلها شفاهاً ، ولم يكن يدقق أوقات التنزيل ومُددها »[1] .

وكأن هذه الباحثة ما تعلم شيئاً عن كتّاب الوحي ، فتترك العبارة ناقصة ، حتى يتصور أمثالها أن القرآن في عهد البعثة الشريفة شفهي المصدر فيه ما فيه من الزيادة والتحريف ، ثم ما هذه العبارة « لم يكن يدقق » ؟ هل كانت له حرية الاختيار في حجم ما ينزل إليه من القرآن وأوقات التنزيل ؟ ما هذا إلا ترهات مغرضة .

وقديماً تلفّظ الكافرون بعبارات عابرة ثم خلصوا إلى حروبهم الأخرى ، فكانوا مهذبين مبجلين لصراحتهم ، وهذا خلاف أصوات متوالية تدّعي العلم والإصلاح ، يبين في سطورهم وما بين سطورهم ما يدل على كره القرآن ومصدره وتفنيد تابعيه وتسفيههم بدعوى الإصلاح والاجتهاد وتصحيح التراث !

أما الدكتور طيب تيزيني ، فقد رأى أن ثمة إشكالاً بين كون القرآن نزل آية آية ليطابق الواقع وبين كونه نزل جملة ، وينتهي إلى أن العلاقة بين اللوح والقرآن ذات بعد تابعي .

وقال بعد هذا : « وعلى هذا يغدو القرآن مخلوقاً غير أزلي ، أي قائماً على كونه ذا مصدر بشري (محمدي) ، وقد ورد في سياق سابق أن هذه المحاولة التأويلية ترتد بأحد مصادرها الكبرى إلى المعتزلة »[2] .

فما أحسن المعتزلة الذين فهموا أن القرآن لم ينزل آية آية ، إذ يعرفون

---

(١) الحريم السياسي ، د . فاطمة المرنيسي ، ص/ ٤٢ .

(٢) النص القرآني ، ص/ ٣٧١ .

تاريخ القرآن ، ولا يتجاهلون الحقائق ، ولمْ يصلوا إلى حد إنكار الوحي والقول ببشرية القرآن، مع أنه لا تناقض مشكل بين النزولين الجملة والتنجيم.

وفي مكان آخر يفهم الدكتور تيزيني من التنجيم صبغة واقعية تقلل من سيطرة الفقهاء ، بل تبطل مسألة الإعجاز ، يقول : « قدم نفسه أولاً مقترناً بطريقة نزوله أي منجماً ، وفي أنه ثانياً استحثّ قارئه على أن يفهمه ويتناوله هكذا تنجيماً حسب واقع الحال ووفق احتياجاته ، وليس بصفته نصاً مغلقاً يفرض نفسه على الناس ، باسم مؤسسة دينية أو باسم فريق من الفقهاء ورجال الدين داخل السلطة المهيمنة أو خارجها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن إعجازية هذا النص بمعنى الخارق والفوق إنساني تتراجع وتتبخّر لصالح نزعة إنسانية من شأنها الاستجابة لمصالح الناس ببساطة وحقيقة وشجاعة ، وبذلك فالمفارقة السافرة التي يلحّ عليها السلفيون ويرون فيها تجسيداً لعظمة النص المعنى ، تجد حدودها ، بل ربما نهايتها ، نعني بذلك مفارقة المعجز الخارق والعادي وإشكالية التواصل بينهما »[1] .

فما أحسن القرشيين الذين أطلقوا عبارات عابرة ، ثم ذهبوا لشؤونهم وحروبهم الأخرى ، بخلاف من يكره القرآن ويجهد في الكتابة حوله مفنّداً المنهج والمصدر والتابعين .

فإذا كان القرآن نزل منجماً فذهب الإعجاز ، فهل قال بهذا الرأي من لا يعرف خدمة الفقهاء لقرآنهم لا لسلطانهم ، وأي تواصل تطابقي يبغيه المسلم بينه وبين القرآن ، إذ لا يُزعجه أن يكون القرآن مفارقاً لأساليبنا وقدراتنا ولكن للاجتهاد والتجديد ألوان وألوان .

* * *

(١) النص القرآني ، ص/ ٣٧٩ .